السبب الثاني فهو بساطة المشكلة الميتافيزيقية:

يقول الفيلسوف الأفلاطوني المعاصر الفرد إدوارد تيلور إذا كان من الصعب، عادة، أن : تضع أمام القارئ المبتدئ فكرة تمهيدية عن طبيعة الدراسة التي هو مقبل عليها، فإن هذه الصعوبة تزداد، بصفة خاصة، في حالة البحوث التي يطلق عليها في العادة اسم الميتافيزيقا.. Metaphysics؛ ذلك لأن المسائل التي تعالجها هذه البحوث هي في الواقع من ذلك النوع البسيط المألوف بصفة عامة، غير أن بساطتها وعموميتها هذه هي نفسها التي تؤلف الصعوبة الرئيسية في ريفها...).

والواقع أن كل إنسان يفكر لابد أن يجد نفسه بسهولة شديدة في قلب الميتافيزيقا عندما يسأل نفسه ماذا أكون؟ من أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ وكيف جئت إلى هذا الوجود؟ وما هو مستقبلي فيه؟... إلخ؛ إذ لابد أن تؤدي هذه الأسئلة إلى طرح المزيد من التساؤلات عن طبيعة الوجود الذي وجد نفسه فيه، عن خصائصه وسماته ولواحقه (أو ما نسميه بالصفات الكلية أو المقولات Categories)، وعما يطرأ عليه من أعراض، عن التغير والثبات، والزمان والمكان، ووجود الذات والعالم مقا". فإذا كانت الميتافيزيقا تبدأ كبحث في الوجود، فإنها سرعان ما تتحول إلى دراسة عن «طبيعة» هذا الوجود، أعني خصائصه العامة، وكلما تقدم البحث وتركز الانتباه ظهر سؤال آخر هو «أي هذه الخصائص أكثر عمومية وكلية من غيرها؟» عندئذ تصبح الميتافيزيقا بحثا في الخصائص الكلية للوجود. وتظهر مصطلحات تخدم احتياجات البحث، لاسيما مصطلح «المقولة التي هي الخاصية الكلية العامة لكل موجود، وهكذا تصبح الميتافيزيقا بحثا في الوجود ومقولاته) وهي ليست موضوعات غريبة عنا بل هي مألوفة لنا ونستخدمها في حياتنا اليومية بصفة دائمة، يقول هيجل: «هل ثمة شيء أكثر شيوعا من تحديدات الفكر (أو المقولات التي نستخدمها باستمرار، والتي تخرج من شفاهنا مع كل حكم نصدره..؟». فأنت تقول: «هذه السيارة الفخمة

بيضاء» ولو أنك حللت هذه العبارة لوجدت أنك تستخدم مقولات: الوجود، والفردية، والكم، والكيف.. وهكذا. فليس الوجود ولواحقه . أي المقولات – مسائل بعيدة عن حياتك اليومية، وكذلك ليست الميتافيزيقا التي تدرس هذه الموضوعات غريبة عنك، او تحلق في سماء يصعب الوصول إليها، وإنما العكس تماما هو الصحيح، فهى قريبة منك، وإنما تأتى صعوبتها وغرابتها من أن موضوعاتها مألوفة لنا تماما، والأمور التي نألفها على هذا النحو لا نلتفت إليها عادة؛ بل نعجب عندما نسمع أن هناك أناسا عكفوا سنوات طويلة على دراستها. خذ، مثلا، موضوع «الزمان» تجد أنك لا تصادف أية صعوبة في معرفة «الوقت»؛ إذ يكفي أن تنظر إلى ساعتك، لكن لو سألك سائل: ما الزمان؟ ومن أين جاءت معرفتك عنه؟ لوجدت أن الأمر ليس سهلا، بل ربما عجبت عندما تعرف أن عقولا ممتازة ظلت تبحث في موضوع الزمان . وكذلك المكان. لأكثر من ألفي عام من «زينون الأيلي» في القرن الساس قبل الميلاد حتى «آينشتين» في القرن العشرين!

من هذا كله نستطيع أن نتلمس الآن بعض الأسباب التي جعلت منه الميتافيزيقا فرعا من أفرع الدراسة صعبا إلى حد ما، فهي علم صعب أولا بسبب عمومية وبساطة مشكلاتها ذاتها، فإذا كان هناك اقتناع عام بأن كل علم إذا أراد أن يكون شيئا أكثر من مجرد المناقشات اللفظية، فلابد أن يكون له موضوع محدد يدور حوله البحث، فليس من السهل علينا أن نقول: ما هو هذا الموضوع المحدد الذي تبحثه الميتافيزيقا على وجه الدقة، ولهذا فلابد لنا من التسليم بهذه الصعوبة. صحيح أن الميتافيزيقا كما سبق أن رأينا تبحث بمعنى ما، في كل شيء، ومن ثم فمن الصواب أن نقول: إنك لا تستطيع أن تحدد فئات معينة من الأشياء وتقول عنها هذه هي الموضوعات التي تبحث فيها الميتافيزيقا وتدور حولها دراستها، لكن ينبغي ألا يفهم من ذلك أن الميتافيزيقا ما هي إلا اسم جديد يطلق على العلوم جميعا؛ ذلك لأن كل ما تعنيه: هو أنها تؤثر في جميع ضروب المعرفة وتتغلغل في جميع العلوم الجزئية والسبب أنها تفرق بين الظاهر والحقيقة.

فالمشكلة العامة حول معنى هذه التفرقة. كذلك المبدأ الذي تستند إليه. لا يمكن دراستهما بواسطة أي علم من العلوم الجزئية، بل لا بد أن يشكلا موضوع بحث مستقل، ويمكن أن نوضح هذه النقطة بأن نقارن بين الميتافيزيقا وبين المنطق: فلئن كانت مبادئ الاستدلال وقواعد الوضوح، والفرق بين التفكير السليم والتفكير الفاسد... إلخ، واحدة في جميع العلوم، إلا أنها لابد أن تكون هي نفسها موضوع بحث مستقل، والمنطق، مثل الميتافيزيقا يبحث في كل شيء، لا بمعنى أنه قد أصبح اسما جديدا لكل ضروب المعرفة، بل بمعنى أنه على خلاف العلوم الجزئية يبحث المشكلة التي نواجهها في كل عملية من عمليات التفكير بل إن جميع النتائج التي تصل إليها لابد أن تكون نتيجة لمجهود الفكر وحده بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، أعني نتيجة التحليل عقلى جاف ودقيق للأفكار، وهكذا تقف الميتافيزيقا وخدها وسط العلوم أو قل: إنها تقف وحدها مع المنطق حين تعتمد على قدرة الباحث على مواصلة التفكير الشاق المستمر، ولعل هذا هو السبب في أن كثيرين ممن لديهم قدرات ممتازة على العمل في حقل العلوم التجريبية قد يعجزون عن السير في الدراسات الميتافيزيقية، وبالمثل فإن القدرة الميتافيزيقية الممتازة قد لا تمكن صاحبها من الحكم حكما سليما على نتائج العلوم الأخرى ومناهجها.

<u>وهناك مصدران آخران للغموض:</u>

وإن كانا أقل من ذلك، ينتجان من عمومية المشكلة الميتافيزيقية لابد أن نذكرهما؛ لأنهما يشكلان عقبة كبرى أمام بعض الدارسين لعلم الميتافيزيقا: فنحن في دراسة الميتافيزيقا لا نستعين بالتخيل ولا بالأشكال والرسوم البيانية ذات النفع الكبير في كثير من أفرع الرياضيات.

وكذلك تحن بطبيعة المشكلة نفسها لا نستمد العون من التجربة الحسية؛ ذلك لأن التفكير الميتافيزيقي تفكير عقلي أو قبلى (أي قبل التجربة) بمعنى ما من المعاني، أعني أنه يعتمد على منهج العقل وحده، وقد يعتمد أحيانا على الحدس أو نور العقل الطبيعي .كما أن الميتافيزيقا

تستخدم المنطق، كما تستخدم التفكير الرياضي على نحو بالغ الوضوح، فضلا عن أنها تقوم بتوضيح تصورات ومفاهيم فلسفية تشكل أسس العلم، وتضع ذلك كله في نظرية نسقية (أو نسق استنباطى) ولا تقدمه على أنه مجموعة من الآراء العشوائية